مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 4 (رت 66) السنة: 2022

المدرسة الناصرية ببسكرة (1171هـ. 1758م)
دراسة تاريخية أثرية

The Nasiriyah School in Biskra (1171 AH. 1758 AD)
Archaeological historical study

الأستاذ: حديبي مراد[1]
جامعة قسنطينة2
mourad.hadibi@univ-constantine2.dz

تاريخ الوصول 2021/09/26 القبول 2021/12/21 النشر على الخط 2022/05/10
Received 26/09/2021 Accepted 21/12/2021 Published online 10/05/2022

ملخص:

تعتبر المدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي بولاية بسكرة التي أسست مع مطلع القرن السابع عشر ميلادي واحدة من أهم مراكز التعليم في منطقة الجنوب الشرقي الجزائري خلال الفترة العثمانية، حيث أسست في بداية الأمر كزاوية للصلاة ولتعليم شتى العلوم بما في ذلك علوم الشريعة الإسلامية، سرعان ما أصبحت وجهة لطلاب العلم من كل حدب وصوب، فتوسعت بعد ذلك وأصبحت تسمى بـ " المدرسة الناصرية والتي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، رغم الإهمال المجحف بحقها وبحق المدينة الأثرية ككل، رغم قيمتها التاريخية والتراثية الكبيرة، ونهدف من خلال البحث هذا إلى التعريف بهذه المدرسة وابراز القيمة التاريخية والأثرية والفنية ووصف مخلفاتها المعمارية رغم أن معظم سكناتها في حالة يرثى لها، حيث بدأت تتدهور شيئا فشيئا أثناء فترة الاحتلال الفرنسي البغيض، فعرفت نتيجة لذلك –إضافة إلى العوامل الطبيعية وهجرة معظم سكانها– تقهقرا كبيرا، فتصدعت مبانيها، واندثرت بعض معالمها العلمية والحضارية وهاجر منها اهل العلم والتصوف ومريدوهم، تاركين فراغا الى الان.

الكلمات المفتاحية: المدرسة، سيدي ناجي، مركز التعليم، التراث المعماري، المجمع الديني

Abstract:

The Nasiriyah school in Khanka Sidi Naji, which was established at the beginning of the seventeenth century AD, is considered one of the most important centers of education in the southeastern region of Algeria during the Ottoman period, It was initially established as a corner for prayer and for teaching various sciences, including the sciences of Islamic, law It quickly became a destination for students of science from all over the world It expanded after that and became called "The Nasiriyah School, which still exists to this day," Despite the unjust neglect of it and the archaeological city at all, despite its great historical and heritage value Through this research, we aim to introduce this school, highlight its historical, archaeological and artistic value, and describe its architectural remains Although most of its dwellings are in a deplorable condition, as it began to deteriorate little by little during the hateful French occupation period.

Keywords: the school, Sidi Nagy, education center, architectural heritage, religious complex.

[1] المؤلّف المراسل: **حديبي مراد** البريد الإلكتروني **mourad.hadibi@univ-constantine2.dz**

1. مقدمة:

خنقة سيدي ناجي بلدية من بلديات ولاية بسكرة تقع في أقصى الجهة الشرقية من الولاية على بعد 80 كلم في منطقة حدودية تعتبر همزة وصل بين ثلاث ولايات خنشلة بسكرة ووادي سوف، وهي تضم تجمعين سكانيين كبيرين، التجمع الأول هو الأقدم تاريخيا باعتباره النواة الأولى لتأسيس المدينة وبه المدرسة الناصرية موضوع الدراسة وهذا التجمع محصور بين الجبال من جهة وبين وادي العرب من جهة أخرى، كما يتميز بعدم التنظيم في محاوره الداخلية التي ندخل إليها من عن طريق المدخل الوحيد وهو البوابة الرئيسية لها، بينما النواة الجديدة فقد تكونت نتيجة لنقص الأراضي الخاصة بالتوسع العمراني في النواة القديمة لذلك كان التفكير في تكوين نواة أو تجمع جديد اكثر انفتاح واكثر تنظيم يبعد ببضع كلومترات عن النواة الأولى(الصورة رقم 02).

الصورة رقم01: موقع خنقة سيدي ناجي ضمن مقاطعة بايلك الشرق

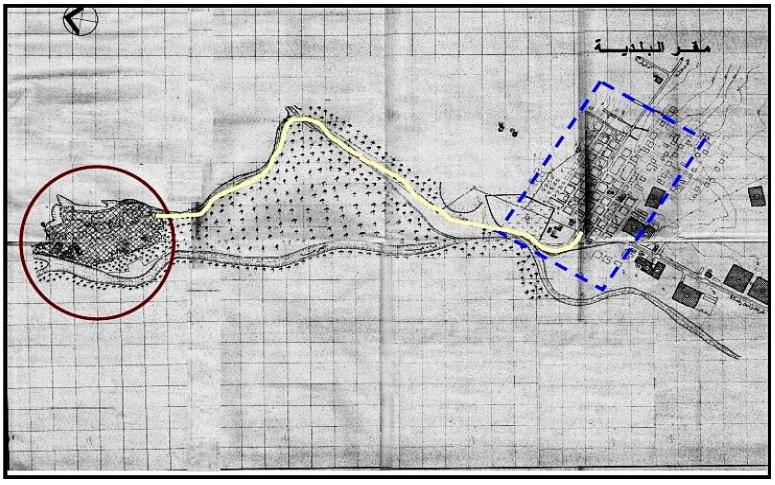

الصورة رقم02: بلدتي خنقة سيدي ناجي النواة الأولى والثانية (عن أحمد السعداوي)

تأسست خنقة سيدي ناجي في عام 1010هـ/1602م على يد الشيخ المبارك بن قاسم بن ناجي (توفي عام 1622م/1031هـ) وسماها على اسم جده سيدي ناجي دفين ساحة الخيل بتونس العاصمة تبركا به[1]، وقد اشتهرت في بداية تأسيسها بزاويتها التي استقطبت طلاب العلم من كل المناطق المجاورة، كما اشتهرت بزراعة النخيل والأشجار المثمرة فتوسعت وذاع صيتها في البلاد كلها. كان لشيوخ الخنقة سمعة طيبة واحترام كبير لدى كل سكان المنطقة، وكذلك لدي حكام الدولة العثمانية أنداك، مما أدى إلى التوسيع في امتيازاتهم والاتساع في نفوذهم إلى كل الزاب الشرقي ومنطقة ششار، خاصة بعد تأسيس المدرسة الناصرية بها على يد الشيخ أحمد بن ناصرعام1171هـ/1758م، فكانت قبلة لطلبة الزيبان وواد سوف والأوراس وقسنطينة وعنابة وحتى تونس وطرابلس.

2. الموقع الجغرافي للمدرسة:

لمدرسة الناصرية ضمن المجمع الديني (المدرسة والمسجد والأضرحة والمقبرة)، والذي شرع في بناءه أول مرة الشيخ المبارك بن قاسم بن ناجي، قبل وفاته في سنة 1037هـ/1630م، وأكمله ابنه الشيخ أحمد بن ناصر لذا فهو يعتبر من بين أهم المعالم التاريخية المتواجدة بالنواة القديمة لخنقة سيدي ناجي، ولا تبعد إلا ببضع أمتار عن المدخل الرئيسي للخنقة، يحدها من الشرق منزلي الشيخ الطيبي والشيخ ناجي ومن الغرب تحده السرايا، وشمالا منزل عائلة بن الحسين، أما جنوبا فتشرف على شارع حواشي المعروف بسقيفة عبد الله

1. أحمد السعداوي، التواصل بين إيالتي تونس والجزائر مجلة السبيل للتاريخ والآثار والعمارة المغاربية، العدد 01، مخبر العمارة والآثار، جامعة تونس، 2016، ص 03

3. التأسيس والمؤسس:

كان تأسيس خنقة سيدي ناجي أول أمرها حول نواة مركزية وهي زاوية لتلقين مبادئ التصوف ومختلف العلوم العقلية والنقلية لاسيما النحو والفقه والحديث دون علم الكلام والمنطق[1] وتلقين مبادئ الطريقة الناصرية الشاذلية عام 1010هـ/1602م وتعاظم هذا الدور مع مرور الزمن، وتزايد السكان وانتشار مكانة شيوخها في نواحي الزاب الشرقي والأوراس، رغم أن قرية ليانة القريبة منها كانت أقدم منها تأسيسا وعلما، إلا أن صيت علماء خنقة سيدي ناجي فاقها في وقت قصير[2].

بعد وفاة الشيخ مبارك بن ناجي سنة 1031هـ/1622م، دفن بالزاوية وأقيم له فيها ضريح وجددت بتوسعة مسجدها الذي أصبح يعرف بعدها باسم مسجد سيدي مبارك، وفي سنة 1758م أضاف له الشيخ أحمد بن ناصر مدرسة عرفت باسم المدرسة الناصرية، التي اشتهرت بها البلدة والتي تعتبر من أقدم المدارس التي تعود للفترة العثمانية بما في ذلك مدارس عاصمة الإيالة قسنطينة التي بناها صالح باي، إذ تشير الكتابة الموجودة على الساكف الحجري المثبت فوق المدخل الجنوبي للمدرسة (الصورة رقم 03) بمقاسات 1.50م طول وبعرض 27سم، نقشت عليه كتابة تأسيسية بخط مغربي رديء تتكون من ثلاثة أسطر ونقرأ فيها أن المدرسة بنيت على يد الشيخ أحمد بن ناصر بتاريخ أواخر رجب سنة 1171هـ.(1758م)، وذلك على الشكل التالي:

– الحمد لله وحده بنيت هذه المدرسة المباركة المسماة الناصرية على يد أفقر الورا

– وخديم الفقراء المستمسك بسنت محمد خير الورا أحمد بن ناصر شكر الله صنيعه

1. الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1917، ص117.

2. كريم الطيب، المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي، مذكرة التخرج لنيل شهادة الماجستير في الآثار الصحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، 2008، 2009م، ص 114

– وأمده من الثواب جزيله ربنا تقبل من أنك انت السميع العليم بتاريخ أواخر رجب من عام إحدى وسبعين ومائة وألف.

الصورة رقم 03: الكتابة التأسيسية المثبتة أعلى المدخل الجنوبي للمدرسة الناصرية

كما قام الشيخ أحمد بن ناصر بتجديد الجامع والضريح من ماله الخاص والذي قدر أنذاك بـ 8112 سلطاني ذهبي[1]، ويرى الأستاذ أبو القاسم سعد الله أن التاريخ المثبت على مدخل المدرسة هو تاريخ تجديد المجمع ككل وليس تاريخ البناء الأصلي، كما أن تسميتها بالناصرية إنما يرجع لتسمية مجددها وليس إلى الطريقة الناصرية الشاذلية[2].

أما بالنسبة لمؤسس المدرسة الناصرية فهو الشيخ أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب بن أحمد بن مبارك بن ناجي التونسي المنشأ والوفاة، حيث زاويته التي بها ضريحه برحبة الخيل في العاصمة تونس، حسب ما ورد في الكناش[3] فإن عائلة أحمد بن ناصر من أصول شريفة قرشيّة، عاشت مدة في الأندلس ومنها قدمت إلى تونس بعد سقوط غرناطة حيث عاش سيدي ناجي وابنه القاسم وكانت لهما بها شهرة وصيت[4] (*).

1. صادقي سمية، مراكز المخطوطات ودورها في كتابة تاريخ الجزائر 1830، 1962، منطقة الزيبان أنموذجا، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة بسكرة، 2013/2012، ص81.

2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 261

3. الكناش مخطوط تاريخي خاص بعائلة سيدي ناجي سجلت في كل الأحداث العائلية وأحداث المنطقة وتواريخها ومراسلاتها افتتح التسجيل فيه حفيد سيدي ناجي الشيخ محمد بن الطيب المتوفي 1154هـ/ 1741م، اطلع عليه الكثير من الباحثين الجزائريين والأجانب، ولم تسعفنا الحظ في الوصول إليه.

4. Gustave Mercier," Khanguet sidi nadji, quelques inscriptions arabes inédites" In Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique Constantine, 1915, p 154

*. ترجع أغلب الكتابات المدونة على أضرحة شيوخ وأئمة عائلة سيدي ناجي بالمجمع الديني بالخنقة نسبهم إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه وسندهم في ذلك كتاب منار الإشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف للشيخ عاشور الخنقي، الذي فصّل محتواه أبو القاسم سعد الله في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي والذي للأسف لم يسعنا الحظ للاطلاع عليه أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500–1830)، ج7، مرجع سابق، ص 332.

بعد موت أبيه وجده غادر الشيخ مبارك تونس إلى مدينة ورقلة صحبة عدد من الأتباع، ثم انتقل منها إلى بسكرة وامتلك بها أراض شاسعة، وفي سنة 1602م تحول إلى صحراء الزاب الشرقي وبنى بعون من أتباعه وأصحابه زاوية وقام باستصلاح الأراضي وحفر القنوات لسقي النخيل والأشجار، أولها ساقية موسى، وكانت القرية تسمى في البداية بمورد النعام[1].

خلف أحمد بن ناصر والده في تولي أمور الخنقة سنة 1154هـ/1741م، وقد اتبع أثار أوائله في العمارة والإصلاح، حيث قام بخدمة السواقي لسقي البساتين وواحات النخيل، كما استصلح الأراضي الزراعية المعروفة باسم الجعدي في الزاب الشرقي حوالي 4000 هكتار القريبة من بادس[2].

ومن أهم إنجازاته كذلك هو اتمامه لمشروع والده فبنى من ماله الخاص روضة سيدي مبارك التي بها المدرسة الناصرية ومئذنة وصحن الجامع والضريح وذلك سنة 1171هـ/1758، وعمرت المدرسة بتعليم القرآن الكريم ومختلف العلوم وزودها بمدرسين للطلبة، الذين كان يسهر على راحتهم وتدريسهم بنفسه[3]

ربط احمد ناصر كذلك علاقات صداقة وتعاون مع بايات قسنطينة الذين جددوا له الولاية، فكان كل باي يعين على قسنطينة يرسل له ظهائر اعترافا بحكمه على المنطقة[4]، وقد لعب على غرار اسلافه دورا كبيرا في تسوية النزاعات التي كانت بين كل من بايات قسنطينة وتونس، فتميزت فترة حكمه بكثرة أسفاره بين تونس وقسنطينة والجزائر لتحقيق الوفاق بين الإيالتين، ولعب دور الوسيط بين التونسيين والجزائريين، حيث كان كل البايات والباشوات يختارونه في مرات عديدة كمبعوث[5].

كما عمد بن ناصر إلى اتباع سياسة توطيد علاقات أسرته أكثر ببايات تونس، خاصة بعد دعم أهل الخنقة واستضافتهم لعلي بن حسين باي خلال فترة الصراع على السلطة داخل العائلة الحسينية (1740-1756) إثر استيلاء علي باشا على الحكم وقتل حسين باي وفرار ابنائه إلى إيالة الجزائر وقضائهم سنوات عديدة فيها[6].

يذكر مؤرخ الخنقة محمد الأخضر أن الأمير التونسي أقام سبعين يوما في ضيافة الزاوية وشيخها أحمد بناصر وتنقل في صحرائها في أحياء العرب[7]، ويتفق هذا مع ما ذكره حمودة بن عبد العزيز في الكتاب الباشي بقوله « فقد أخذ ورد الامام العلامة سيدي أحمد بن ناصر الدرعي عن الشيخ سيدي عبد الحفيظ الخنقي، وهو يرويه

---

1. أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 06

2. Gustave Mercier, Op. cit, p 45

3. كريمة بن حسين، خنقة سيدي ناجي إبان العهد العثماني، المجلة المغاربية التاريخية، العددان 90/89، منشورات زغوان، تونس ماي 1998، ص 60

4. Gustave Mercier, Op. cit, p 160

5. Marthe.et Edmond Gouvion, kitab Aàyane el maghariba, Imprimerie oriental Fontana frères, 1920, p 42.

6. للمزيد حول الحرب الباشية الحسينية على السلطة أنظر أحد أهم المصادر التاريخية التونسية خلال القرن 18 التي تؤرخ لأحداث الصراع والفترة ككل، وهو الكتاب الباشي للمؤرخ ابن عبد العزيز حمودة، قد سبق ذكره في هذا البحث

7. هو محمد الأخضر بن محمد بن حسين بن أحمد بن ناصر من أعقاب الشيخ سيدي مبارك، كتب رسالة دوّن فيها تاريخ عائلة سيدي ناجي في نهاية القرن التاسع عشر وترجمها قوستاف مارسيي (Gustave Mercier) ونشرها ملحقا في مقاله حول نقائش خنقة سيدي ناجي، أنظر: Gustave Mercier, Op. cit, p160

عن صاحبه سيدي أحمد بن ناصر رحمه الله تعالى. وقد أجازه الشيخ سيدي عبد الحفيظ عن سيدي أحمد بن ناصر بسنده المعروف في الطريقة»[1]

كما يروي محمد الأخضر عن الشيخ أحمد بناصر أنه كان مهتما بالبناء والتشييد فبعد أن انتهى من تجديد القبة التي على ضريح جده سيدي مبارك ومن بناء المدرسة الناصرية التي تحمل اسمه إلى اليوم، بنى قلعة عسكرية تسمى برج البطحاء على مشارف الخنقة نصب عليها أربع مدافع لحمايتها من أي اعتداء أجنبي وصد الغزاة عنها[2]، خاصة وأن حروبا طويلة كانت قائمة بين الخنقة وسكان القبائل المجاورة كالشابية وليانة، وبذل في ذلك ثروة هائلة تفوق عشرة آلاف ريال[3].

لكن بعض شيوخ الشابيّة وليانة وشوا به لدى باي قسنطينة صالح القلّي4 (1757-1771) واتهموه ببناء قلعة وتجهيزها بالمدافع بالمدافع لغاية الانفصال عن بايلك قسنطينة وإعلان الولاء إلى باي تونس، فأمره الباي بهدم البرج ولم تقنعه حجج الشيخ أحمد بن ناصر من أن الحصن بني لحماية البلد، فاستغل غيابه عن الخنقة وهجم عليها ملحقا بها خسائر كبيرة[5]، ويذكر محمد الأخضر أن جده الشيخ أحمد بن ناصر قتل مع ابنه بعد هذه الحادثة بسنوات طويلة، عام 1780م، قتله أبو زيان الشابي وهو في طريقه لزيارة تونس[6]

4. مكانة المدرسة الناصرية التاريخية وأهميتها العلمية:

تعتبر المدرسة الناصرية من أشهر المدارس في غير العواصم وأهمها على الإطلاق في منطقة الزاب والجهة الشرقية من المغرب الأوسط وحتى في البلاد المجاورة، فكانت مركزا لنهل العلوم الشرعية كالفقه والحديث خاصة مختصر البخاري لابن أبي جمرة، وعلوم البلاغة

1. ابن عبد العزيز حمودة، مصدر سابق، ص 206

2. Marthe.et Edmond Gouvion, Op. cit, p45

3. أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 08

4. أحمد باي القلي، تولى منصب آغا على مدينة القل عدة سنوات فلقب بالقلي، تزوج من عائلة بن قانة المعروفة، ثم حكم بايلك الشرق ما بين 1170هـ، 1756م 1756م إلى 1185هـ، 1771م، وقد استطاع فرض سيطرته على اقليم البايلك، وعرف بغزواته ضد القبائل الكبرى، منها هجومه على خنقة سيدي ناجي في عهد الشيخ أحمد بن ناصر، وقد توفي بعد مدة حكم دامت 15 سنة وخلفه صالح باي أنظر:

Mouloud Gaid, Chronique des beys de Constantine, office des publications universitaires, Alger, (s.d), p38, et Charles Féraud ,Les Ben Jalab sultans de Touggourt, in Revue Africaine, V24, 1880, p 105

5. Marthe.et Edmond Gouvion, Op. cit, p45

6. Makhloufi Soumaya La sauvegarde du patrimoine entre interventions ponctuelles et stratégie globale cas de la dachra de khanguet sidi nadji, Mémoire Présenté pour obtenir le diplôme de Magistère Nouveau Régime en Architecture, Département d'Architecture, Université de Biskra, 2010, P 137

كالنحو والصرف والعروض ومختلف العلوم الأخرى باستثناء علم الكلام والمنطق[1]، كما كانت مقصدا لطلبة الزيبان ووادي سوف والأوراس وقسنطينة وعنابة وبلاد زواوة بل وحتى من تونس وطرابلس[2] تخرج منها العديد من العلماء، بعضهم تابع دراسته في الزيتونة والأزهر، وذاع صيتهم في الجزائر وخارجه نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر من خريجيها الأوائل أحمد التليلي القماري صاحب خطة البديع، وخليفة بن حسن القماري صاحب جواهر الإكليل في نظم مختصر خليل المتوفي سنة 1208هـ[3]

أما من خريجيها المتأخرين محمد بن عاشور صاحب كتاب منار الإشراف على عصاة الأشراف، والشيخ محمد بن إبراهيم المكي قاضي سيدي عقبة والشيخ ابن حسين محمد الطيب قاضي أولاد جلال، والشيخ عمراني المسعود قاضي وادي سوف، والمطي بن عزوز عالم طولقة[4]

كما جلبت شهرة المدرسة الناصرية الشيخين العربي التبسي[5] وأحمد السرحاني من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومحمد المكي بن الصديق الونجلي الشاذلي المكي[6]، والشيخ عبد الله بن عبد الواحد الذي جمع عموما

عديدة وخاصة منيا عموم الرياضيات والهندسة، وهو الذي فصل في قضية المياه المتنازع عليها آنذاك بين أهالي عاصمة الزيبان بسكرة، فرضوا بحكمه بعد خصام طويل[7].

هذه المكانة العلمية الكبيرة لخصها الورثيلاني في قوله " أولاد الشيخ سيدي ناجي حازوا المعالي من قديم الزمان، وقد وجدت كثيرا من الفضلاء منهم في محلهم سيدي محمد الطيب وسيدي أحمد بن ناصر...فإن النحو عندهم يعتني به الكبير والصغير حتى أنهم اشتهروا به اشتهارا بينا"[8]

وكان علماء المدرسة الناصرية وشيوخها يتبادلون الرسائل في مختلف العلوم الدينية مع علماء الجزائر وقسنطينة وتونس وبسكرة، منهم العلامة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، والشيخ خليفة بن حسن القماري الذي كان له الفضل في تكوين عدد هام من الأئمة والمدرسين[1]

1. الحسين بن محمد الورثيلاني، مصدر سابق، ص 119
2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 261
3. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، مرجع سابق، ص 284، 285
4. كريمة بن حسين، مرجع سابق، ص 65
5. يذكر أبو القاسم سعد الله عن التعليم في زاوية الخنقة أن العربي التبسي بقي هناك ثلاث سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم ومبادئ الدين واللغة العربية، أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج3، مرجع سابق، ص 218
6. الهواري ملاح، الشاذلي المكي ونشاطه السياسي، محاضرات الملتقى الوطني الثامن بسكرة عبر التاريخ، تحت عنوان من أعلام بسكرة المعاصرين، إصدار الجمعية الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية بدعم من وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص 170
7. عبد الحليم عساسي ومروان سمير قدوح، خنقة سيدي ناجي أو تونس الصغيرة، حاضرة عمم وفن وجمال، مجلة جماليات، العدد 01، مج 05، مخبر الجماليات البصرية في الممارسة الفنية الجزائرية، جامعة مستغانم، ديسمبر 2019م، ص 131
8. الحسين بن محمد الورثيلاني، مصدر سابق، ص 119

ومع بداية الاحتلال الفرنسي تراجع دور المدرسة الناصرية، وشيئا فشيئا فقدت المدرسة بريقها ومكانتها العلمية والثقافية، خاصة بعد تعرض الخنقة لهجرة جماعية من النواة القديمة إلى النواة الثانية الجديدة المسماة الوجلة، وأصبحت عبارة عن بناء مهجورا مثل العديد من البنايات المجاورة بعد قرنين ونصف من العطاء العلمي والثقافي.

5. الدراسة الوصفية للمدرسة:

1.5 . المخطط العام:

مخطط المدرسة يأخذ الشكل المستطيل شبه المنحرف، يتشكل من طابقين يتوسطهما صحن تتوزع عليه الغرف من ثلاث جهات ويلتحم مع المسجد من الجهة الرابعة، مساحته الإجمالية حوالي 190م2 يمتد من الشرق إلى الغرب بمسافة 18.80م ومن الشمال إلى الجنوب بمسافة 10.10م، وهي مساحة تشمل فقط الصحن والغرف دون الأضرحة والمسجد وبيت الوضوء التي تفتح عليها من مختلف الجهات (المخطط رقم 01).

2.5. الوصف الخارجي:

بحكم أن المدرسة الناصرية تقع ضمن مجمع ديني يشمل المدرسة والأضرحة مع المقبرة والمسجد بباحته الخارجية، وضمن النسيج العمراني التقليدي للخنقة ككل الذي يرتكز على مبدأ التخطيط على الداخل كوحدة أساسية، فإننا نجد أن للمدرسة واجهة واحدة فقط، وهي الواجهة الغربية التي تطل على زقاق ضيق يفتح فيه الباب الرئيسي للمدرسة والمسجد، اما باقي الواجهات الثلاث فهي متصلة بمختلف العمائر المشكلة للمجمع السالف الذكر، فالجهة الجنوبية تلتحم مع الجدار الشمالي للمسجد، أما الجهة الشرقية فهي متصلة بغرف الدفن (المقبرة) والضريح، ويلتصق بها من الجهة الشمالية الميضأة وبعض المباني السكنية التي تهدمت أجزاء كبيرة منها.

فيما يخص الواجهة الرئيسية للمدرسة فهي تفتح على زقاق ضيق عرضه حوالي 2.30م، مخصص بالخصوص للوافدين على المجمع الديني إما لزيارة الأولياء بالأضرحة أو للصلاة بالمسجد بحكم أن هذا الزقاق يفتح عليه المسجد والمدرسة وبيت الوضوء، والواجهة بسيطة يتجاوز ارتفاع جدرانها 5.20م (الصورة رقم 01).

المخطط رقم 01: مخطط المدرسة

1. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 1

بالنسبة لمدخل المسجد فبه باب ضخم ارتفاعه 2.90م وعرضه 1.60م تزينه صفوف من المسامير المدببة مختلفة الأحجام، وتحليه زخارف منجزة على حجارة كلسية صلبة، تنتمي إلى نمط تونسي عريق معروف خصوصا في مباني قصبة تونس، مثل جامع الصباغين الذي بناه حسين بن علي عام 1727م وهي زخارف نباتية وهندسية وكتابية تتكرر هذه الزخارف في إطار محراب المسجد وحول الشبابيك المعدنية المطلة على الضريح من الخارج، وداخل أروقة المدرسة[1] معروف خصوصا في مباني قصبة تونس، مثل جامع الصباغين الذي بناه حسين بن علي

الصورة رقم 04: الواجهة الرئيسية للمدرسة التي تفتح على الزقاق في الجهة الغربية

1. يذكر لنا القيم على المسجد الشيخ .... أن الخنقة تحتفظ بالكثير من التحف والقطع الفنية والمعمارية التي أنجزها صناع في تونس جلبت منها إلى الخنقة خلال القرن 18م نذكر منها المربعات الخزفية ومنبر الجامع وبعض العناصر المعمارية والزخرفية كالأطر الحجرية والأعمدة والأبواب والصناديق الخشبية، بحكم الصلات الوطيدة التي كانت تربط الخنقة منذ نشأتها بمدينة تونس وإلى فترة قريبة، ذلك أن الشيخ المؤسس كان تونسي المولد والوفاة، ولشيوخها بعده علاقات سياسية متواصلة بحكام تونس خلال عصر الدايات وفترة حكم البايات المراديين والحسينيين للمزيد حول هذا الموضوع أنظر: أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 11

عام 1727م وهي زخارف نباتية وهندسية وكتابية تتكرر هذه الزخارف في إطار محراب المسجد وحول الشبابيك المعدنية المطلة على الضريح من الخارج، وداخل أروقة المدرسة[1]

أما مدخل المدرسة الذي لا يبعد إلا ببضع أمتار عن الباب الأول فهو يقرنه من حيث نمط البناء وإن كان أقل منه حجما وزخرفة، إذ يبلغ ارتفاعه 2.20م وعرضه 1.50م، يعلو اطاره الحجري البارز ساكف به كتابة تأسيسية

نفذت بتقنية الحفر البارز بخط مغربي رديء، كنا قد أشرنا إليها في موضوع تأسيس المدرسة أعلاه (الصورة 06)

الصورة رقم 05: مدخل المدرسة الناصرية

الصورة رقم 06: مدخل المسجد

3.5 . الوصف الداخلي:

يتم الدخول إلى المدرسة ذات الطابقين من مدخلين، أولهما المدخل الرئيسي في الواجهة الغربية عبر سقيفة مغطاة بسقف نصف برميلي مبني بالأجر، طولها 5.70م وعرضها 1.90م، فتح في ضلعها الشمالي باب يؤدي إلى الميضأة، وتنتهي في جهتها الأخرى إلى الصحن، وأما الباب الثاني فمن بيت الصلاة في مسجد سيدي مبارك مباشرة إلى رواق الصحن في المدرسة (الصورة رقم 05).

الصحن عموما يأخذ شكل المعين، في ضلعه الجنوبي يوجد رواق مشكل من ثلاثة عقود نصف دائرية تقوم على عمودين من الحجر الكلسي لهما قاعدة مربعة يعلوها بدن أسطواني ينتهي بتاج ناقوسي على نمط التيجان الحفصية (الصورة 09)، وعلى هذا

1. يذكر لنا القيم على المسجد الشيخ .... أن الخنقة تحتفظ بالكثير من التحف والقطع الفنية والمعمارية التي أنجزها صناع في تونس جلبت منها إلى الخنقة خلال القرن 18م نذكر منها المربعات الخزفية ومنبر الجامع وبعض العناصر المعمارية والزخرفية كالأطر الحجرية والأعمدة والأبواب والصناديق الخشبية، بحكم الصلات الوطيدة التي كانت تربط الخنقة منذ نشأتها بمدينة تونس وإلى فترة قريبة، ذلك أن الشيخ المؤسس كان تونسي المولد والوفاة، ولشيوخها بعده علاقات سياسية متواصلة بحكام تونس خلال عصر الدايات وفترة حكم البايات المراديين والحسينيين للمزيد حول هذا الموضوع أنظر: أحمد السعداوي، مرجع سابق، ص 11

الرواق تفتح نافذتان تطلان على بيت الصلاة يتوسطهما المدخل وبهما شبابيك معدنية ويحفهما إطار بارز من الحجر الكلسي الصلب المنحوت بزخارف نباتية.

الجهات الثلاثة الأخرى للصحن بها غرف الطلبة في الطابقين الأرضي والعلوي، كما نجد في وسط الصحن ألواح التعليم واحواض حجرية لمحو الألواح.

الصورة رقم 07: شكل الصحن من أعلى المدرسة

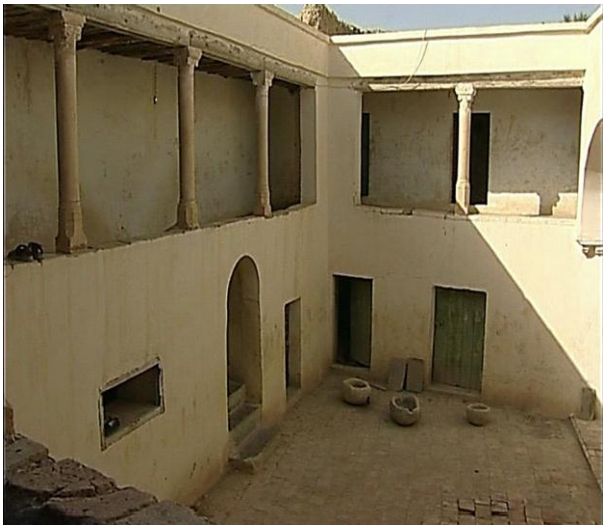

الصورة رقم 08: واجهتي الصحن الشرقية والشمالية

الصورة رقم 09: رواق الصحن الجنوبي المعقود والمفتوح على بيت الصلاة في المسجد

الصورة رقم 10: الواجهة الغربية للصحن ويظهر فيها مدخل السقيفة

1.3.5. غرف الطلبة

يذكر أبو القاسم سعد الله في كتابه تجارب في الأدب والرحلة عن المدرسة لما زارها سنة 1980م أنها تحتوي على 15 غرفة ولكننا لم نجد عند زيارتنا لها سوى 11 غرفة موزعة ما بين الطابقين الأرضي والعلوي، منها ثمانية غرف في الطابق الأرضي والثلاثة الأخرى في الأعلى[1]

1. يبدو أن المؤرخ احتسب الغرف الموجودة في الميضأة وعددها أربعة، وهي صغيرة جدا لا تتجاوز مقاساتها 1م^2، وهي لا تفتح على الصحن بل يتم الدخول إليها إما عن طريق السقيفة أو من الشارع في الواجهة الغربية، أنظر: أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، مرجع سابق، ص 261

غرف الطابق الأرضي كانت تستعمل للدراسة والمبيت معا، لا تزال الأدوات التي كان يستعملها الطلبة موجودة فيها الى اليوم كالمسارج والمحارات والألواح وأحواض الماء والحصائر والوسائد وغيرها، وهذه الغرف موزعة على الصحن من جهاته الثلاث، ثلاثة في الجهة الغربية، وتقابلها على نفس المستوى ثلاثة أخرى في الجهة الشرقية، أهم ما يميزها أن شكلها غير منتظم ومتقاربة في الحجم عمقها أكبر من عرضها مقاساتها ما بين 3.70م و3.90م عمقا، و 1.40م و 1.70م عرضا، وهي خالية من الزخارف ومن النوافذ وفتحات التهوية عموما.

أما الغرفتين المتبقيتين في الطابق الأرضي فهما تقعان في الجهة الشمالية من الصحن يفصل بينهما السلم المؤدي إلى الطابق العلوي، وهما صغيرتا الحجم عرضهما أكبر من عمقهما، تتراوح مقاساتهما ما بين 2.30م عرضا و 0.80م عمقا، وخاليتين من الزخارف ومن فتحات التهوية تستمد الهواء والضوء من الباب، بها كوات صغيرة لوضع المسارج، وهي مسقوفة تسقيف مسطح، يذكر أبو القاسم سعد الله أن كل غرفة من هذه الغرف كانت تضم من خمسة الى عشرة طلاب يتعلمون فيها مبادئ العربية والقرآن الكريم، وعندما ينضجون علميا يحضرون حلقات الدرس في الجامع المجاور[1].

أما الطابق الثاني الذي يتم الصعود إليه من الدرج وسط الجدار الشمالي للصحن، فهو يضم ثلاث غرف فقط في الرواق الشرقي وهي غرف صغيرة الحجم مقاساتها متقاربة من حيث العمق والعرض ما بين 1.70م/ 2م، وهي غرف لا تختلف من حيث التهوية عن الغرف السالفة الذكر وتختلف عنها من حيث أنها مسقوفة بأسقف نصف اسطوانية (الصورة 11).

الصورة رقم 11: غرف الطلبة بالطابق العلوي

الصورة رقم 12: الرواق الشمالي بالطابق العلوي

أما الرواقان الآخران الشمالي والغربي فهما خاليان من الغرف بهما فقط دخلات حائطية كبيرة على شكل كوات يشرفان على الصحن بمجموعة من الدعامات والأعمدة الحجرية غير المعقودة والتي تحمل السقف الخشبي المسطح.

2.3.5. المسجـد:

1. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، مرجع سابق، ص 261

اتخذ مسجد المدرسة شكلا مستطيلا طول ضلعه 18.50م وعرضه 13.50م، مكون من خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة تشكلها أربعة بوائك في كل بائكة ستة أعمدة حجرية تحمل عقودا نصف دائرية بروابط خشبية في الجهات الأربع، وسبعة بلاطات عمودية على جدار القبلة، تشكلها ستة بوائك في كل بائكة أربعة أعمدة بنفس مواصفات بوائك الأساكيب.

وقد جاء المسجد بسيطا خاليا من الزخرفة، باستثناء المنبر والمحراب الذي يتوسط جدار القبلة في الجهة الجنوبية والذي زين بنقوش نباتية وهندسية وكتابية منها كتابة تأسيسية، تشير لباني الجامع وهو محمد بن محمد الطيب أواسط شهر صفر سنة 1147هـ وكتابة أخرى تشير لناقش المحراب، مضمونها العافية الباقية والعز والهناء وناقشه احمد بن عمر التونسي لطف لله به، وشرع في تركيب الباب الغربي في شوال عام 1146هـ/ 1734م، من طرف صانعه وناقشه الاصطا احمد بن عمر الشريف الجبايلي، أما منبر المسجد فهو متحرك ومصنوع من الخشب تحيط به زخارف نباتية متعدد الألوان به كتابة تشير لتاريخ الصنع سنة 1147 هـ/ **1734م**

ويفتح المسجد على المدرسة في جداره الشمالي، كما يفتح في جداره الشرقي مدخل يؤدي إلى صحن ملحق به، شبه منحرف غير مغطى ومبلط بآجر أحمر، ولهذا الصحن محراب يستخدم للصلاة أيام الحر، يحيط به أروقة من ثلاث جهات، من الشرق والغرب والجنوب، تشكلها بوائك من الأعمدة المعقودة على نفس الأسلوب الموجود في بيت الصلاة، وتفتح عليها الأضرحة والمقبرة والمئذنة (الصورة 13).

بالنسبة لمئذنة المسجد التي تعتبر من أقدم المآذن في مساجد الزاب كله1، فهي تتميز بعدم توسطها المسجد، إذ جاءت مستقلة عن بيت الصلاة، ذات طراز مغاربي تتكون من قاعدة وبدن مربعين ومن طابق واحد به 61 درجة، يعلوه جوسق يحمل قبيبة بيضاوية على النمط المحلي الشائع الانتشار في مثل هذه العمائر الصحراوية.

1. حسب النقوش الكتابية الموجودة داخل المحراب، شرع الصانع احمد بن عمر الشريف الجبايلي في بناء المئذنة في 03 ذي الحجة عام1146هـ/ 1734 م وعدد درجتها 61 درجة، حول هذه النقوش أنظر: كريم الطيب، مرجع سابق، ص 143

الصورة رقم 13: بيت الصلاة بمسجد سيدي مبارك

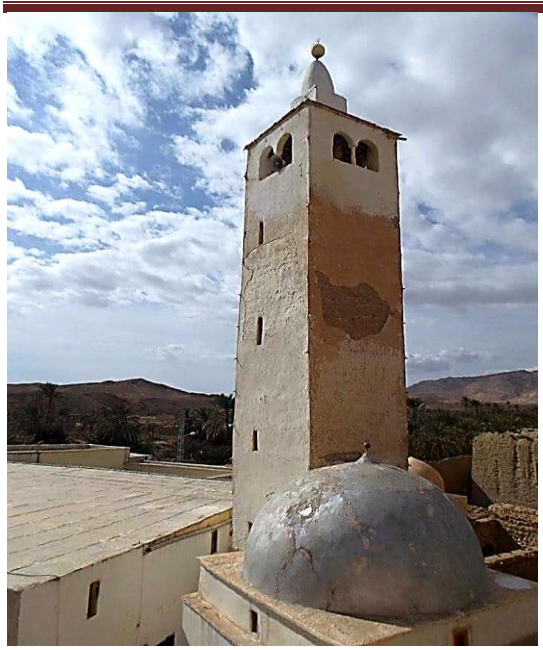

الصورة رقم 14: مئذنة مسجد سيدي مبارك

الدينية منها على وجه الخصوص، وفي أخر القبيبة عمود معدني يحمل شكل التفاحة ويعلوه الهلال، كما يفتح أعلى البدن وفي الجهات الأربعة نوافذ معقودة بعقود نصف دائرية، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية في تبليغ الآذان، استغلت فيما مضى للمراقبة عند الأخطار، باعتبارها تشرف على جميع أنحاء المدينة (الصورة 14).

6. خاتمــة:

مما لا شك فيه أن التصميم الحالي للمدرسة الناصرية بالخنقة لم يكن بالشكل الذي هو عليه الآن، بل خضع لعدة ترميمات وزيادات مست معظم معالمه خاصة ما تعلق منه بمسجد سيدي مبارك باعتباره النواة الأولى للمجمع ككل، هذه التوسيعات المتعاقبة والترميمات التي أجريت عليه غيرت الكثير من ملامحه بسبب مواد البناء الهشة المستعملة فيه كقوالب اللبن التي لا تقاوم الظروف المناخية القاسية من حرارة وجفاف، ضف إلى ذلك الموقع الذي أسست عليه، ما يجعلها عرضة للفيضانات من وادي العرب المجاور، ويمكن تتبع هذه الزيادات والتجديدات حسب ما عثرنا عليه من معلومات في بعض وثائق المكتبة وحسب ما افادنا به شيوخ المنطقة وحتى من خلال الكتابات المنقوشة على بعض العناصر المعمارية كالمحراب والمنبر والمئذنة والمداخل.

– تم تجديد وتوسيع مسجد سيدي المبارك على يد الشيخ محمد بن محمد الطيب بن مبارك سنة **1147**هـ/**1734** م، يدل على ذلك الكتابة المنقوشة على يسار المحراب وفحواها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد والصلاة والسلام على من لا نبي بعده بني هذا المسجد المبارك على يد أفقر الوري وخديم شيراك نعال الفقراء أتقى الجنان، المتمسك بسنة ولد النظر بن عدنان الشيخ البركة سيدي محمد بن محمد الطيب رحمه الله وثبت أجره وغفر الله له ولجميع المسلمين.

– تم تجديد وتوسيع المسجد مرة أخرى سنة 1171هـ/ 1758م، على يد أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب وأضاف له المدرسة وقبة ضريح الشيخ محمد بن مبارك، يدل على ذلك الكتابات المنقوشة على مدخل المدرسة مثلما سبق ذكره، غير أن عمليات الترميم العشوائية لبعض المعالم أدى إلى طمس الكثير من الكتابات المنقوشة عليها.

– قام الشيخ حسين بن أحمد بن ناصر الذي تولى المشيخة عام 1210هـ/1794م بترميم صومعة مسجد سيدي المبارك، وأحضر من تونس بنائين علي البنزرتي وأخوه محمد وقاسم الصفاقسي وأربع صناع للأجر في عهد الباي حمودة باشا، ويبدو أن الأجر المستخدم في سقف المسجد والصحن، كان في عهده الذي تميز بالرخاء والازدهار في كافة المجالات

– المراجع البيبليوغرافية

1. المصادر المخطوطة والمطبوعة:

1. الكناش مخطوط تاريخي خاص بعائلة سيدي ناجي سجلت في كل الأحداث العائلية وأحداث المنطقة وتواريخها ومراسلاتها افتتح التسجيل فيه حفيد سيدي ناجي الشيخ محمد بن الطيب المتوفي 1154هـ/ 1741م محفوظ لدى العائلة.
2. ابن عبد العزيز حمودة، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، تونس، 1970
3. الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1917

2. المراجع بالعربية:

1.2. الكتب:

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، ج1، ج3، ج7، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998
2. أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

2.2. الأطروحات:

1. كريم الطيب، المعالم الأثرية الإسلامية في منطقة الزاب الشرقي، مذكرة التخرج لنيل شهادة الماجستير في الآثار الصحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، 2008، 2009م.
2. صادقي سمية، مراكز المخطوطات ودورها في كتابة تاريخ الجزائر 1830، 1962، منطقة الزيبان أنموذجا، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة بسكرة، 2013/2012.

3.2. الدوريات:

1. الهواري ملاح، (الشاذلي المكي ونشاطه السياسي)، محاضرات الملتقى الوطني الثامن بسكرة عبر التاريخ، تحت عنوان من أعلام بسكرة المعاصرين، إصدار الجمعية الخلدونية للأبحاث والدراسات التاريخية بدعم من وزارة الثقافة، الجزائر، 2009.

4.2. المقالات:

1. أحمد السعداوي، (التواصل بين إيالتي تونس والجزائر)، مجلة السبيل للتاريخ والأثار والعمارة المغاربية، العدد 01، مخبر العمارة والأثار، جامعة تونس، 2016.
2. عبد الحليم عساسي ومروان سمير قدوح، (خنقة سيدي ناجي أو تونس الصغيرة، حاضرة عمم وفن وجمال)، مجلة جماليات، العدد 01، مج 05، مخبر الجماليات البصرية في الممارسة الفنية الجزائرية، جامعة مستغانم، ديسمبر 2019م.

3. كريمة بن حسين، (خنقة سيدي ناجي إبان العهد العثماني)، المجلة المغاربية التاريخية، العددان 90/89، منشورات زغوان، تونس ماي 1998.

3. المراجع بالأجنبيـة:

Les livres

1. Gustave Mercier," Khanguet sidi nadji, quelques inscriptions arabes inédites" In Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique Constantine, 1915.

2. Marthe.et Edmond Gouvion**, kitab Aàyane el maghariba**, Imprimerie oriental Fontana frères, 1920.

3. Mouloud Gaid, **Chronique des beys de Constantine**, office des publications universitaires, Alger, (s.d).

Les Thèses

4. Makhloufi Soumaya **La sauvegarde du patrimoine entre interventions ponctuelles et stratégie globale cas de la dachra de khanguet sidi nadji,** Mémoire Présenté pour obtenir le diplôme de Magistère Nouveau Régime en Architecture, **Département d'Architecture, Université de Biskra, 2010.**